ابن دراج القسطلي
(٣٤٧ . ٤٢١هـ)

حياته وسيرته:

هـو أحمـد بـن محمـد بـن العـاص بـن دراج، يكنى بـأبي عمـر، ويلقـب بالقسـطلي، وقسـطلة، بلـدة تابعـة لجيـان قـرب قلعـة بني سـعيد، أشـارت إليهـا المصـادر الأندلسـية، والمشـرقية،[١] ويرى محمود علي مكي، أنها أرجح المواضع الثلاثة التي عرفت في الأندلس باسم "قسطلة"، ولمكانة أسرة الشاعر عرفت المدينة بهم، ونُسبت إليهم، فسميت باسم "قسـطلة دَرّاج"، تنتمي أسرته إلى قبيلة صنهاجة البربرية... ولكننا لا نجد أيّ أثر لنسبه في قصائده الكثيرة.. والرّاجح أنها كانت شأن الأجناس، والقوميات التي في الأندلس، قد انصهرت في بوتقة الأندلس ولعله مما يلفت النظر ألا يتوجه ابن دراج، وهو الشاعر المادح في قصائده لمدح ملوك مملكة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة على الرغم من انتسابه لهم، ولذلك فخرت الأندلس به وازدهرت لنبوغه ولقبته بمتنبي الأندلس، وأغفلته ممالك البربر في الأندلس والمغرب.

ولد سنة ٣٤٨هـ في عهد عبد الرحمن الناصر وعاش طفولته وصباه في عهد الحكم المستنصر، الذي عرف عصره بالتألق العلمي، وبلغت الأندلس فيه عصرها الذهبي، فقد روي أن الحكم أنشأ سبعةً وعشرين مكتباً لأولاد الضعفاء والمساكين، منها ثلاثة حول المسجد الجامع والباقي في أرباض قرطبة،[٢] وهي صورة رائعة لاهتمام حكام الأندلس بالتعليم وفي مثل تلك الظروف نتوقع أن يكون شاعرنا قد أدرك نصيبه، وبلغ مأرب أسرته من الثقافة الرصينة التي انعكست على شاعريته بشكل واضح، وانتهت به ليكون أبرز شعراء الأندلس في عصره.

ولا شك أنه جمع إلى تلك الثقافة ملكة متميزة، وشاعرية أغدقت ثمارها، منذ عهد مبكر، ولم يصل إلينا من قصائده الأولى شيء، إذ أن أقدم قصيدة وصلت إلينا، تمثله في مرحلة من نضج الشاعرية، وهي تتصل بمدح المنصور العامري سنة ٣٨٢هـ، وقد ذكر الحميدي أنه قالها يعارض قصيدة لصاعد البغدادي، ومطلعها:[٣]

أضـاءَ لهـا فجـر النُّهى فنهاهـا ... عـن الدَّنفِ المضْنى بحرِّ هَوَاهـا

للباحثة حميدة صالح.

١ تنظر حياته، في مقدمة الديوان، ١٩ . ٨٠.

٢ البيان المغرب، ٢٤١/٢.

٣ ديوانه، ق ٣. جذوة المقتبس، ١١١.

وهي قصيدة طويلة تجاوزت خمسين بيتاً، جاءت في الديوان مستهلة بعبارة "وهي أول ما أنشده" ويوضح الحميدي[1] ذلك، على أنها أول شعر مدح المنصور به، والقصيدة تجري على تقاليد الشعر العربي، حيث يستهلها بمقدمة غزلية، ثم ينتقل بعدها إلى وصف الرحلة إلى الممدوح، ثم يحدثنا عن آثار تلك الرّحلة حديثاً وجدانياً مؤثراً، لأنه غادر مدينته (قسطلة) إلى قرطبة، وخلف فيها أفراد أسرته، وفي ذلك يقول:[2]

ولله عَزمي يومَ ودَّعت نحوه ... نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربَّة خِدرٍ كالجمان دُموعها ... عزيزٌ على قَلبي شطوطُ نَوَاها
وبنتُ ثمانٍ ما يزالُ يرَوعُني ... على النّأي تذكارِي خفوق حشاها

ويصور نزاع أسرته إليه، وشدة تعلقه بها، وتستغرق منه هذه المقدمات جل أبيات القصيدة لينتهي إلى مدح المنصور في عشرة أبيات فقط ويبدو أن القصيدة كانت لها أصداء لدى شعراء العصر ممن قرّبهم المنصور بن أبي عامر فساءت به الظنون، واتهموه في قصيدته أنه منتحل، لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء، ثم استحضره المنصور وابتلاه، فبرّع وسطع، ونسخ تلك الأراجيف والدعوات الباطلة، وأصبح مذ يومها في ديوان الشعراء،[3] وفي ذلك أنشأ ابن دراج قصيدته البائية التي جاءت في أربعة وستين بيتاً، ومطلعها:[4]

حَسبي رِضاك من الدهر الذي عَتَبا ... وجودُ كفّيك للحَظّ الذي انقلبا
من بعد ما أضرمَ الواشونَ جاحمةً ... كانتْ ضُلوعِي وأحشائي لها حَطَبا
ودسسوا لي في مثنى حبائلهم ... شنعاء بتّ بها حرّان مكتئبا
حتى هُززت فلا زَندُ القريض كبا ... فيما لدي ولا سيف البديه نَبَا
وأشرقت شاهداتُ الحقّ تنشر لي ... نوراً غَدَتْ فيه أقوال الوشاةُ هبا

وفيها يشير إلى محنته في التهمة التي وجهت، ويردّ رداً عنيفاً على المرجفين به، وهو في ذلك لا يختلف عن كبار الشعراء أمثال امرئ القيس والأعشى،[5] وهو في قصيدته كما لاحظنا لا يستهلها بمقدمة غزلية، بل بلغت به سورة الغضب إلى أن يباشر موضوعه على نحو ما رأينا، ويتضمن الديوان عدداً كبيراً من قصائده في مدح المنصور ومن بعده ولده المظفر، تبلغ نصف مدائحه تقريباً ولا جرم أن يمنح ممدوحه الأثير هذا الاهتمام بعد أن قضّى في ظله شطر حياته الأول، وصاحبه في كثير من غزواته إلى قشتالة، وقد أحرز منزلة بين شُعراء المنصور متميزة، حيث يقترح عليه أن يعارض قصيدة أبي نواس

---

١ الجذوة، ١١٠.
٢ ديوانه، ٣/٣٥ . ٣٧.
٣ يشير د. محمود على مكي إلى الوهم الذي وقع فيه ابن الخطيب في الإحاطة، ٢/١٠٦ . ١٠٧. حيث زعم أن الشاعر كان أحد الشعراء الأربعين الذين رافقوا ابن أبي عامر في غزوته المشهورة إلى برشلونة، ٣٧٤هـ. مقدمة ديوان ابن دراج، ٣٨ . ٣٩.
٤ ديوانه، ١/١٠٠، ٢٠ . ٢٣.
٥ ديوانه، ق ٤/٣٣ . ٣٤.

التي نظمها في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر، ومطلعها:[1]

أجـــارة بيتينـــا أبـــوك غيـــورُ ومِيسـورُ مـا يُرجى لـديك عسـيرُ

وكان قد اقترح معارضتها على صاعد البغدادي ارتجالاً فأبى، وأنشد معتذراً أبياتاً في ذلك ثم ألحف عليه المنصور، فعارض تلك القصيدة بقصيدة أولها:[2]

جَـذال الشـرى إني بِكـنَّ بَصيرُ طَـــوتكنّ عنـي خِلـــة وقَتيـــر

وأما قصيدة ابن دراج فقد انمازت على قصيدة صاعد، ومطلعها:[3]

دَعي عزمـاتِ المستضـامِ تسـيرُ فتنجـدَ في عَـرضِ الفـلا وتغـورُ

وهي من قصائده المعدودة في الديوان، وقد جاءت في خمسة وستين بيتاً بينما جاءت قصيدة أبي نواس برواية الصولي في أربعين بيتاً، وهي تمثل بواكير القصائد الأندلسية، ذات النزعة المعارضة ولكي يتبين الدارس القيمة الفنية لهذه القصيدة، ينبغي أن يوازنها بنظيرتها.

وتمضي الأيام بأبي عمر، لتحل الفتنة الجائحة بقرطبة، فتتوقف شاعريته ويغيض معينها، ثم ينتقل إلى بلاط ملوك سرقسطة، بعد سنوات من الاضطراب وكانت أول قصيدة في مدح المنذر بن يحيى التجيبي سنة ٤٠٨هـ، ومطلعها:

بُشراك من طولِ التّرحل والسُّرى صـبحٌ بـروحِ السّـفر لاح فأسْـفَرا

ويُمضي حوالي عشر سنوات في كنف المنذر وولده يحيى، ليستعيد نفسه الشعري الذي كان مع أبي عامر، وليواكب مجدهما الزاخر، ويؤرخ انتصاراتهما الماجدة وأبرز المناسبات التي مرت بتلك المملكة.

ويعتري سنواته الأخيرة شيء من الغموض في صحبة يحيى بن منذر، إذ لا يلبث أن يغادره إلى بلاط مجاهد العامري، في دانية فيلبث فيها سنوات حياته الأخيرة، حيث يدركه الأجل عام ٤٢١هـ.

ديوانه وموضوعاته:

ظلت معلوماتنا عن شعر ابن دراج محدودة حتى عام ١٩٦١ حيث صدرت الطبعة الأولى من ديوانه[4] بتحقيق محمود علي مكي، وقد أشار المحقق في مقدمة الديوان إلى أنه أول ديوان ينشر لشاعر أندلسي متقدم، فلا يعرف ديوان مجموع لشاعر أندلسي منذ الفتح العربي حتى القرن الرابع الهجري... وكانت الأحكام الأدبية التي صدرت حول الشاعر وشعره، تعتمد على النقول الضّافية، والاختيارات الواسعة التي قام بها مؤرخو الأدب الأندلسي، والمشرقي، كذلك، فجاء تحقيق الديوان ونشره إضافة كبيرة إلى ديوان

---

١ ديوان أبي نواس برواية الصولي، ٤١٧، ط دار الرسالة بغداد، ١٩٨٠.

٢ الذخيرة، ٢٢/١/٤. وتنظر مقدمة ديوان ابن دراج، ص ٤٧.

٣ ديوانه، ٧٨.

٤ طبع في المكتب الإسلامي، دمشق، على نفقة الأمير علي عبد الله آل ثاني وقد صدرت طبعة ثانية عن المكتب ذاته، سنة ١٩٦٨.

الشعر الأندلسي لشاعر كبير في أزهى عصوره.

احتجن الديوان حوالي ستة آلاف بيت، في مائة وتسع وستين قصيدة.

وحين نتحدث عن موضوعاته الشعرية التي نظم فيها، وننظر في ديوانه نظرة متفحصة، لنحدد تلك الموضوعات، فإننا سنواجه حالة انمازبها هذا الشاعر، إذ تأتي جل قصائده، وأكثرها مستهلة بعبارة "ومما قاله فيه"، فالمديح هو الركن الركين في موضوعاته وليس الشاعر بدعاً في ذلك فقد مضى على سنته جل شعراء عصره في المشرق والأندلس، فظاهر الديوان أن قصائده تركزت في مدح ملوك الأندلس وفي مقدمتهم ممدوحاه الأثيران المنصوران، محمد بن أبي عامر، ومنذر بن يحيى التجيبي، إلى جانب عدد آخر من ملوك، ووزراء، ورؤساء، وقضاة وجه إليهم قصائده.

أما قصائده التي لم يوجهها إلى الممدوح، وتناول فيها موضوعات أخرى كوصف الطبيعة، والرثاء، فهي لا تتجاوز عشرين قصيدة.

ونلاحظ أن قصيدة المديح عند الشاعر كانت قصيدة طبعية منسجمة مع الظروف العامة للعصر، والخاصة بالشاعر، وهي لذلك تأتي متكاملة العناصر،[1] تمثل الممدوح في صورة رائعة، يجسد من خلالها معالم القيم الخلقية، وملامح الشخصية الإسلامية، وهي في ذلك تذكرنا بقول أبي تمام:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

ومن هذه القيم التي نوه بها في قصائده، توقير حماة الدين وخليفة المسلمين، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، احتساب الأجر والثواب من الله، التنويه بإقامة أركان الدين من صلاة وصوم، وحج وزكاة، انتصار معاني الإيمان على الشرك والضلال، نفي العقائد الباطلة، والمناهج المنحرفة، المزاوجة بين قيم الدنيا والدين، تمجيد البطولة في أشخاص الممدوحين، والإشارة إلى تمثلهم بمآثر قادة المسلمين، ثم ذكر الوقائع الإسلامية في التاريخ الإسلامي، وسنلاحظ أن لغة الشاعر قد تأثرت بمصدري التشريع الإسلامي، القرآن الكريم، والحديث الشريف.

ومن الخطأ الظن بأنّ ملكة الشاعر وباعه قد قصّرا به عن النظم في موضوعات الشعر الأخرى، كما حصل لعدد من شعراء العرب، فتأخرت مراتبهم عن مراتب الفحول، عند أكثر النقاد ومنهم ابن سلام الجمحي، فأصبحوا في المراتب المتأخرة، وكان حقهم التقدم،[2] وتقدم عليهم الذين تعددت أغراضهم وتنوعت.

ومن الدارسين المحدثين الذين وقفوا عند شاعرنا أحمد هيكل الذي رأى أنه من الظلم لابن دراج وشعره، أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً، وأن يسقط من ديوانه ما فيه، من موضوعات أخرى، ربما كانت أهم ما فيه.[3]

---

١ يرى د. هيكل، ص ٣١٤ أن سطوة المنصور وابنيه كانت عاملا دفع بالشاعر إلى المدح.

٢ طبقات فحول الشعراء، ١٤٧/١، ٥٤٥/٢.

٣ الأدب الأندلسي، ٣١٥.

وأبرز تلك الموضوعات الفرعية، كانت تدور على محور الوصف، وهي نزعة شخصها أحد كبار النقاد في العصور الإسلامية المتقدمة، خلال حديثه عن تقاليد القصيدة العربية التي تتصل ببناء القصيدة، وتناسب أجزائها، واعتدال أقسامها، من استهلال بالنسيب ووصف للرحلة إلى الممدوح ثم المدح.[1]

وشاعرنا يمضي على هذا النهج، ويتوسع فيه توسعاً لا يخرجه عن طبيعة القصيدة العربية، فيتناول موضوعات شعرية أخرى تتصل بموضوعه الرئيس، فهو يصف رحلته إلى الممدوح وما يقتضيه بعد الشقة عنه من نصب ووصب، ومكابدة ومعاناة، وما يتصل به من تعلق الأسرة، وتشبث الأبناء بأبيهم، الذي يضطره ضيق الحال، ولوازم العيش إلى ضروب من الشحط والنوى، وفي هذا الاتجاه يشير هيكل[2] إلى أن أهم الأغراض الفرعية التي تضمنها الديوان في قصائد المدح هي:

وصف مواقف الوداع وفراق الأهل، وهو وصف مشوب بمعاني الغربة والقلق والضياع. ووصف الأسفار في البر والبحر.

كما يتناول موضوعاً لصيقاً بالممدوح هو وصف المعارك الحربية البرية والبحرية. ويرى إحسان عباس ذلك، بأن الشاعر لم يكن مطمئناً في ظل ممدوحه الأول، المنصور بن أبي عامر، وذلك ما دعاه إلى الاستكثار من معنيين هما:

ذكر مفارقته لزوجته وابنته وصعوبة الفراق.

وحاجته إلى الرضا والثقة بحيث يحقق حالة من الاستقرار لا يخشى معها صروف الأيام[3] فمن الموضوع الأول قوله في قصيدته التي عارض بها أبا نواس:[4]

ولما تدانتْ للوداع وقد هفا ... بصبريَ منها أنةٌ وزفير
تناشدني عهد المودةِ والهوى ... وفي المهدِ مبغوم النداء صغير
عيّيٌ بمرجوعِ الخِطابِ ولفظُه ... بموقعِ أهواءِ النفوس خبير
تبوَّأ ممنوع القلوب ومُهّدت ... له أذرعٌ محفوفةٌ ونحورُ

وقد تقدمت أبياته الهائية. في هذا المجال. في أول قصيدة أنشدها للمنصور بن أبي عامر، وفي وصف الأسفار، قوله يصف رحلة البحر، في قصيدته النونية التي يخاطب فيها خيران العامري حاكم سبتة سنة ٤٠٧هـ:[5]

إليك شحنّا الفُلكَ تَهوى كأنّها ... وقد ذَعَرت عن مغربِ الشّمس غربانُ
على لججٍ خُضرٍ إذا هبّت الصَّبا ... تَرامى بنا فيها ثَبيرٌ وثهلان
إذا غِيض ماء البحر منها مددتُه ... بدمع عيونٍ يمترينهن أشجان

---

١ الشعر والشعراء، ١/٢٠. ط دار الثقافة.
٢ الأدب الأندلسي، ٣٢٥.
٣ تاريخ الأدب الأندلسي، ١/١٤٢ ـ ٢٤٢.
٤ ديوانه، ق ٧٨.
٥ ق ٣٣.

وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا زفير إلى ذكر الأحبة حنّان

وقوله في قصيدة يخاطب بها منذر بن يحيى التجيبي:[1]

وكم عجزتْ عنا ذوات قوائمٍ فعُجنا بعوجٍ ما لهن قوائم
جاجئ غربانٍ تطير لنا بها على مثل أطواد الفيافي نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوتْ خوافٍ ومن عصفِ الجنوب قوادم

ورحلة البحر كثيراً ما تتردد في أشعار ابن دراج حتى أننا نستطيع أن نعده أحد أبرز ثلاثة شعراء ترك البحر أثره في شعرهم.[2]

وأما وصفه الرحلة البرية فلا يخلو ديوانه منها فمن ذلك ما جاء في قصيدته الرائية المشهورة التي عارض بها أبا نواس:[3]

ولو شاهَدْتني والصَّواخد تلتظي عَلَيَّ ورقراق السراب يمور
أُسلّط حرَّ الهاجراتِ إذا سَطَا على حُرّ وجهي والأَصيل هجير
واستنشق النكباء وهي بوارحٌ وأستوطِئ الرَّمضاء وهي تفور
لبان لها أني من الضَّيم جازعٌ وأني على مضِّ الخطوب صبور

وأما وصفه المعارك البرية والبحرية، فقد تناولها في قصائد كثيرة منها ما جاء في وصف واقعة خاضعها ابن أبي عامر في القضاء على ثورة زيري بن عطية، حاكم المغرب، وهي في خمسة وخمسين بيتاً منها قوله:[4]

تحملّ منه البحرُ بحراً من القَنا يَروعُ بها أمواجُه وبهولُ
بكلّ معالاة الشّراع كأنها وقد حملتْ أُسدَ الحقائق. غِيل
إذا سَابقتْ شأوَ الرّياح تخيّلت خُيولاً مَدى فُرسانِهنّ خيولُ
أراقمُ تُقري ناقعَ السم ما لها بما حَمَلت دونَ الغُواة مَقيلُ

سماته الفنية:

يُعد ابن دراج أحد المتقدمين بين شعراء عصره في شهرته فهو من شعراء الطبقة الأولى في الأندلس، ولذلك باهى به مؤرخو الأدب ونقاده من مشارقة وأندلسيين.. وسنعرض لآرائهم في هذا المجال:

هذا أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ) يقرنه بالمتنبي فيقول: "كان بصُقع الأندلس كالمتنبي بصُقع الشام، وهو من الشعراء الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول".[5]

وأما مواطنه ابن شهيد الأندلسي (٤٢٦هـ) الشاعر الناقد، فقد فصل القول في

---

١ ق ٤٤.
٢ البحر في شعر الأندلس والمغرب، ٥٧.
٣ ق ٧٨.
٤ ق ١.
٥ يتمية الدهر، ١٠٣/٢. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣.